من فخائم الأمور عظائم، و﴿ أَلْمُكُرِمِينَ ﴾: عند الله إذ أرسلهم إلى خليله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتُ رُسُلُنَا ۚ إِبْرَهِيمَ بِٱلْبُشْرَكِ قَالُواْ سَلَمًا ۚ قَالَ سَلَمُ ۗ... ﴾ (١).

ومكرمين عند إبراهيم إذ أكرمهم قبل أن يعرفهم، تدليلاً على مدى حقوق الضيف وإن كانوا منكورين لا يعرفهم المضيف.

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَكُمَّ قَالَ سَلَكُم قُومٌ مُّنكَرُونَ ﴿ إِنَّ اللَّهُ عَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴿ إِنَّ اللَّهُ عَالَمُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَ

يرد عليهم تحيتهم بأحسن منها كما توحي به الجملة الإسمية: ﴿قَالَ سَلَمُ ﴿ بَخْبُرُهَا المحذوف، الدالة على الدوام، بعدما أوحت جملتهم الفعلية ﴿ فَقَالُواْ سَلَمًا ﴾ بسلام غير دائم.

ثم يضيف إلى إضافتهم في هذه التحية الحسنى، إضافة لهم عملية، وهو ينكرهم ولا يعرفهم:

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ـ فَجَآءَ بِعِجْلِ سَمِينِ ﴿ إِنَّ اللَّهُ ﴾:

دون أن ينتظر تعريفهم بأنفسهم أو ينظر في أمرهم: فقد أدى واجبه الأول أن رد تحيتهم بالحسنى، والثاني تقديم أدب من آداب اللقاء الإيماني: التعارف بين المتلاقين، أن يعرّف كلٌّ نفسه ويتعرف إلى الآخر، فضيفه المكرمون كانوا يعرفونه وهو لا يعرفهم، ولكنه عاملهم كمن يعرفهم.

والثالث المبادرة إلى إحضار الطعام قبل أن يعرفوا أنفسهم، في مثلث الإضافة المحترمة أخيراً أن راغ ﴿إِلَى أَهْلِهِ عَجَلٍ سَمِينِ ﴾ ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ صَمِينِ ﴾ ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (١) عجل - سمين - حنيذ! وهو يروغ للمجيء به إلى أهله!.

فالروغ طلب بضرب من الاحتيال والتخفي، مما يوحي كأنه لم يكن لدى أهله إلا عجل واحد، أو إلا سمين واحد لا يرضون بذبحه بسهولة،

١٠١ سورة هود، الآية: ٦٩.

_ (۲) سورة هود، الآية: ٦٩.

ولضيف غير معروف! يجيء به حنيذاً: مشوياً بين حجرين نظيفين، يقربه كله إليهم، وهو طعام عشرات، وهم كانوا ثلاثة فيما يقال، يكفيهم كتف من هذا العجل!.

فإلى هنا لا يظهر منه مخلفات من نكرانه لهم إلا في البداية في قوله: ﴿فَرُمُ مُّنكُرُونَ ﴾ اللهم إلا كل تجليل وتبجيل يستحقه كل ضيف عزيز معروف جليل، إلى أن:

﴿ فَقَرَّبَهُ وَ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾:

﴿ فَاهَا رَءَا أَيْدِيَهُمُ لا تَصِلُ إِلَيُو نَكِرَهُمُ وَأَوْجَس مِنْهُمْ خِيفَةً . . ﴾ (١) فالوجس هو الصوت الخفي، والإيجاس إخفاء الصوت في النفس، مما يدل أنه كان خوفاً خفياً أو مشارفاً كما تعنيه الوجل، وإنما استشعر منهم الخوف، إما لأن عدم الأكل من طعام المضيف، ولحد لا تصل أيديهم إليه، ينبئ عن نية شر وخيانة، أو يلمح فيهم شيئاً غريباً في نوعه، فحتى لو كانوا شبعانين، عليهم أن يمدوا أيديهم ليأكلوا ولو قليلاً، أو يسفروا عن عذرهم بعد تقريب الطعام إليهم، فإذ لم تصل أيديهم إليه، ولم يعتذروا، إذاً فحق لإبراهيم - وهو يعيش بين أعداء له كثير - أن يخافهم، ولكنه أوجس منهم خيفته، رعاية لهم، إلا أن ملامح الوجه بطبيعة الحال تسفر عن الخيفة الموجسة، مهما حاول الخائف في إيجاسه، فلما عرف أنهم عرفوا ما أوجسه، بادر بإظهاره، ولكي لا في إيجاسه، فلما عرف أنهم عرفوا ما أوجسه، بادر بإظهاره، ولكي لا قام به من واجبه، ف ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ (٢) مصارحة بالحق ما أحلاها، دون مسايرة بإيجاس الخيفة، التي قد تخلف آثاراً سيئة، حتى خبروه عن حالهم بما يحمل له بشارتين:

⁽١) سورة هود، الآية: ٧٠.

⁽٢) سورة الحجر، الآية: ٥٢.

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفُّ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَمٍ عَلِيمٍ ﴿ اللَّهِ ١٠٠

ثم لما يرى منهم ما يخيفه يخفيه عنهم مغبة تكريمهم، وألا يتأثروا بما يعرف من عجيب أمرهم، ثم لما عرفوا الخيفة الموجسة في نفسه من ملامحه، أبرزها لهم ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾: نستشعر منكم الخوف فإن أمركم مريب، فهذه الخيفة الموجسة لم تكن خوفاً ثابتاً، وإنما استشعاراً يعنيه الوجل، وما أعدل إبراهيم إذ لم يحصل له من أمرهم المريب واقع الخوف، وإنما مشارفته المساءلة، لا عداءً لهم وامتهاناً، وإنما بغية ظهور الحال وعلاجها، وقد عولجت بالبشارتين، أن عرفهم رسل ربه المكرمين، فاستبشر بغلام عليم، والقضاء على قوم لوط المجرمين.

﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُكَمٍ عَلِيمٍ ﴾: بشارة بإسحاق من زوجه العجوز العقيم سارة ، بعد أن بشره ربه قبل ذلك بغلام حليم ﴿ فَبَشَّرْنَهُ بِغُلَمٍ حَلِيمٍ ﴾ من هاجر وهو إسماعيل ، ﴿ قَالَ أَبَشَرْتُمُونِ عَلَىٓ أَن مَسَّنِي ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿ قَالُوا بَشَرْنَكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَنْطِينَ ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ * إِلّا الضَّالُون ﴾ (٤) .

⁽١) سورة الحجر، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

⁽۲) سورة هود، الآية: ۷۰.

⁽٣) سورة الصافات، الآية: ١٠١.

⁽٤) سورة الحجر، الآيات: ٥٤-٥٦.

﴿ فَأَقَبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتَ وَجْهَهَا وَقَالَتَ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿ آَيُ قَالُواْ كَلَالِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿ آَيُكِ اللَّهُ الْعَلِيمُ الْعَلَيْمُ الْعَلِيمُ الْعَلَيْمُ الْعَلِيمُ الْعَلَيْمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلَيْمُ الْعَلَيْمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلَيْمُ الْعَلَيْمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعِلَيْمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلَيْمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلَيْمُ الْعَلِيمُ الْعِلْمُ الْعَلِيمُ الْعَلَيْمُ الْعِلْمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعِلْمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلَيْمِ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعِلْمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ الْعِلْمُ الْعِلِمُ الْعِلْمُ الْعِلْمُ الْعِلْمُ الْعِلْمُ الْعِلْمُ الْعِلْمُ الْعِلْمُ الْعِلَام

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآيِمَةٌ فَصَحِكَتُ فَبَشَرْنَهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿ قَالَتُ عَالَكُ وَاَمْرَأَتُهُۥ قَآيِمَةٌ فَصَحِكَتُ فَبَشَرْنَهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ يَكُونُ وَهَلَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَلَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿ آَيُ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْكُو الْهَلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ عَجِيدٌ ﴿ آَلُولُ اللَّهِ وَبَرَكَنُهُ عَلَيْكُو الْهُلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ عَجِيدٌ ﴿ آَلُولُ اللَّهِ وَبَرَكَنُهُ عَلَيْكُو اللَّهُ اللَّهِ وَبَرَكَنُهُ عَلَيْكُو الْهَلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ عَجِيدٌ ﴿ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ وَبَرَكَنُهُ عَلَيْكُو الْهَلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ وَمِيدًا لَهُ اللَّهُ اللّ

إن دور إبراهيم في هذه البشارة كان استبشاراً حمله على استفسار بشأنه خاصة ﴿عَلَى أَن مَّسَنِي ٱلْكِبُرُ ﴾ (٢) دون زوجه العجوز العقيم، ولم يكن سؤاله ﴿أَبَشَرْتُمُونِ ﴾ (٣) إنكاراً لقدرة الله، قنوطاً من رحمة الله، إذ حكم هو بضلال القانطين، وإنما استعظاماً للبشارة، وهل أنها حقاً من الله؟ وهؤلاء هم رسل الله؟ فلممّا ﴿قَالُواْ بَشَرْنَكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَنطِينَ ﴾ (٤) اطمأن قائلاً ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلّا ٱلضَّالُون ﴾ (٥).

وأما زوجه فقد استغربت هذه البشارة وتعجبت منها في مثلث الاستبعاد: (عجوز ١ عقيم ٢. وهذا ٣ بعلي شيخاً)؟ قالته لما سمعت البشارة: ﴿فَأَفَكَتِ المُرَاتَةُ فِي صَرَّةٍ ﴾: في صياح شديد ﴿فَصَكَتَ وَجُهَهَا ﴾: لطمت وجهها ﴿وَقَالَتَ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾؟ فإنها بغتت وفوجئت بهذه البشارة، فندت منها صيحة الدهشة، وصكت وجهها صكة الوحشة، إذ لم تكن تتوقع هكذا بشارة!.

﴿ وَالُواْ كَذَاكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ بما يحكم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما يريد ﴿ وَالْعَلِيمُ ﴾ بما يريد ﴿ وَمَكُنُهُ عَلَيْكُمُ أَهُلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ عَبِيدٌ ﴾ (١) ولقد نفذت رحمة الله

⁽١) سورة هود، الآيات: ٧١-٧٣.

⁽٢) سورة الحجر، الآية: ٥٤.

⁽٣) سورة الحجر، الآية: ٥٤.

⁽٤) سورة الحجر، الآية: ٥٥.

⁽٥) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

⁽٦) سورة هود، الآية: ٧٣.

الخاصة هنا في ثالوث الاستحالة بحساب الإنسان، فلم يمنع عقمها المزدوج: ﴿عَمُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ ولا شيخوخة بعلها الخليل عن نفاذ أمر الجليل.

هذه البشارة كانت بحق إسحاق وفي مثلث الاستغراب، وأما التي كانت بحق إسماعيل قبل إسحاق فلم تحمل خارقة للعادة، إذ لم تكن زوجه لا عجوزاً ولا عقيماً، ولا هو شيخاً لحد الإياس، ولذلك نراه يبتدىء هو بالطلب: ﴿رَبِّ هَبُ لِي مِنَ ٱلصَّلِحِينَ ﴿ فَاللَّهِ عَلَيْمٍ حَلِيمٍ . . . ﴾(١).

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُو أَيُّهَا ٱلْمُرْسِلُونَ (إِنَّكَ ﴾:

توحي هذه المقالة أن إبراهيم لم يعدّ بشارته في عداد خَطب المرسلين، فإنه الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، ما يوحي بأنهم أكثروا معه الحوار ليهيئوا الجو لبيان أمرهم العظيم: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ وعلّه بداية الحوار، فلتستكن نفس الخليل بما أرسل به المرسلون عن الجليل.

فقد زال عنه روع أوّل، ثم ابتلي بروع ثان أروع هي قصة العذاب على قوم لوط ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتُهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجُدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿ إِنَّ إِنَّ هِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتُهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجُدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿ إِنَّ إِنْ هِيمَ الرَّوْءُ وَجَآءَتُهُ ٱلْبُشْرَىٰ يَجُدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿ إِنَّ إِنْ الرَّالِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ الله المنارة، ثم الحوار مقدمة الخطب، ثم التصريح بالخطب إذ سألهم:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿ قَالُوا إِنَّا أَرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ تَجْرِمِينَ ﴿ قَالُ الْمُرْسَلُونَ ﴿ قَالُوا إِنَّا أَرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ تَجْرِمِينَ ﴿ قَالُ اللَّهُ اللّ

وهم قوم لوط، ترى ما هو الدافع لإطلاع إبراهيم بهذا الخطب، ورسالة العذاب كانت على قوم لوط؟! لأن إبراهيم كان رسولاً على لوط والنبيين معه وبعده إلى موسى، فحفاظاً على كرامة القيادة العليا الرسالية، لا بد وأن يبدأ له بما يراد للقيادات الجزئية، وعلى الأقدام.

⁽١) سورة الصافات، الآيتان: ١٠١، ١٠١.

⁽٢) سورة هود، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينِ ﴿ مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿ اللَّهِ ﴿ لَا لَهُ اللَّهُ اللَّ

ترى ما هو دور إبراهيم في هذا الإنذار بعد الاستبشار؟ هل يسكت راضياً عن تعذيبهم مهما كانوا مجرمين، وبعد أن رضي الله وأراد؟ أم يغتنم الالتماس، لعل الله يستجيب له لأنه ليست إرادة حتم؟.. إنه يجادل ربه فيهم بالحسنى التماس العفو وتأخير العذاب: ﴿ يُحُكُولُنّا فِي قَوْمِ لُوطٍ آنَ إِنَّ إِنَّ إِنَّ إِنَّ الله المعلم العفو وتأخير العذاب: ﴿ يُحُكُولُنّا فِي قَوْمِ لُوطٍ آنَ إِنَّ إِنَّ إِنَّ إِنَّ الله المعلم العفو وتأخير العذاب، ولكنه بعد أن يعرف حتم الإرادة الإلهية فأوّاه منيب، حليم عن المجرمين ما دام الأمل، أواب منيب إلى الله إذا زال الأمل: ﴿ يَكَانِزُهِمُ أُعْرِضٌ عَنْ هَذَاً إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْنُ رَبِّكً أَواب منيب إلى الله إذا زال الأمل: ﴿ يَكَانِزُهِمُ أُعْرِضٌ عَنْ هَذَاً إِنَّهُمْ عَلَيْكً الله إلى الله إذا زال الأمل: ﴿ يَكَانَزُهِمُ أُعْرِضٌ عَنْ هَذَا أَوْمُ عَصِيبٌ ﴾ (٢) إلا بعدما وَاجد نفس الحلم في لوط: ﴿ وَلَمَّا بَين لا براهيم من قبل، وهكذا يكون دور الرسالات مع الأمم المتخلفة، حنونة حليمة إلا إذا خاب الأمل وجاء أمر الرب وخسر هنالك المبطلون.

﴿ حِجَارَةً مِّن طِينِ ﴿ ثُنَّ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿ ثِنَّكُ ﴾ وهي منضود.

إنها حجارة تخلق من تحجر الطين، المعبر عنها بصيغة أخرى بسجيل: ﴿ فَجَعَلْنَا عَلِيهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرُنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِيلٍ ﴾ (٤) ﴿ . . . مَّنضُودِ اللهُ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّلِلِمِينَ بِبَعِيدٍ (اللهُ ١٠٠٠).

وكما أرسلت على أصحاب الفيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلِ﴾(١) وهو

⁽١) سورة هود، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

⁽۲) سورة هود، الآية: ۷٦.

⁽٣) سورة هود، الآية: ٧٧.

⁽٤) سورة الحجر، الآية: ٧٤.

⁽٥) سورة هود، الآيتان: ۸۲، ۸۳.

⁽٦) سورة الفيل، الآية: ٤.

معرب (سنك كل) الفارسية: حجر الطين، فهل أن حجر الطين أصلب وأقوى من سائر الحجر وكيف؟!

وبما أنه متحجر عن طين في ضغوط جوية أو تحت الأرضية، وفي حرارة خارقة، إذاً فلا بد وأنه أصلب من سائر الحجر، دون الطين الذي يتحجر بمرور الزمن، وبتعامل الموافقات فإنه أوهن من الحجر الأصل ولا شك.

والسجيل هذا قد يُرسل على المجرمين من الفضاء، من مقاذف الكواكب التي ترمي إلى الشياطين، فالمحترقة منها في الأجواء هي الشهب والنيازك النارية، والواصلة منها إلى الأرض هي الأحجار السماوية التي قد ترمى إلى المجرمين، فهي باحتراقها في الجو، وتبدّل قسم من سطوحها الخارجية إلى الرماد، ومرورها على المياه والرطوبات، ثم رجعها إلى الحالة الصلبة الحجرية تحت عامل الحرارة والسرعة، بعد ذلك تتصلب، وعلّها أكثر مما كانت، حين انفصالها عن مقاذفها، وهذه صورة من صور اصطناع حجارة من طين.

وقد يكون مرسلاً من باطن الأرض، حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطيني من جوف الأرض، ترسل من قاذفات البراكين، إلى جماعة من المجرمين.

وقد يكون مصطنعاً من غبارات منتشرة بين الأرض والسماء، من الأرض أو السماء، تتحجر تحت ضغوط جوية وموافقات ومنها الحركة والحرارة والرطوبة والرياح.

۱۰۷ وأياً كان سجيل المجرمين، فليكن أصلب حجر وأقواه وأشده إيقاعاً وكما في قصة أبابيل، المرسلة على أصحاب الفيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةِ مِّن سِجِّيلٍ ﴿ فَعَلَهُمْ كَعَصْفِ مَّأْكُولِمِ ﴿ فَا ﴿ اللَّهِ ﴿ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ ولا تَبقي ولا تَذر.

ثم السجيل ﴿ مُسَوّمةً عِندَ رَبّكِ الْمُسْرِفِينَ ﴾ كما هنا، ﴿ وَمَا هِى مِنَ الظّلهِينَ ، ومعلمة للمسرفين، بِعِيدٍ ﴾ كما في هود 11: فلتكن محضرة قرب الظالمين، ومعلمة للمسرفين، دون فوضى فيها ولا في إرسالها، ولا المرسل بهم، والمرسل إليهم، وزمان الإرسال ومكانه، وقدر الظلم والإسراف: ﴿ مُسَوّمةً ﴾: معلمة عند ربك ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾: المجاوزين الفطرة والعقل والدين، ومعلمة للظالمين: المنتقصين، على كل طائفة منها لها علامة تخص طائفة من الظالمين المسرفين، أو أن كل واحدة منها تحمل علامة لكل منهم، فهي مسومات، كما أن المسرفين دركات، لكل ما يستحقه من سجيل وأصل التسويم هو في تسويم الخيل للحرب، أي تعليمها بما تتميز بها من خيل العدو، شبهت بها هذه الحجارة لأنها معلمة بعلامات تدل على مكروه المصابين، فإرسال هذه للهلاك كإرسال تلك للعراك.

وهي كذلك منضودة: ركاماً بعضها فوق بعض، إنْ في السماء أو في باطن الأرض. . . جنود ربانية تصدر عن مصدر العزة فتذل المسرفين الظالمين.

ولقد كان أمطار السجّيل تتمة التدمير بعد الصيحة: ﴿ فَأَخَذَتُهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُ الصَّيْحَةُ مُ الصَيْحَةُ مُ الصَّيْحَةُ مُ الصَّيْحَةُ مَن سِجِّيلٍ النَّيُ إِنَّ فِي ذَلِكَ مُشْرِقِينَ النَّهُ وَمَعْدَنَ عَلَيْهُمْ عَلَيْهُمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ النَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ كَيْفُ ابتداء العذاب؟:

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ

وهم آل لوط إلا امرأته، فقومه تآمروا في إخراجهم تخلصاً منهم: ﴿فَمَا

١٠٨ سورة الفيل، الآيتان: ٤، ٥.

⁽۲) سورة الحجر، الآيات: ۷۳-۷۰.

ڪَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۚ إِلَّا أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوۤا ءَالَ لُوطِ مِّن قَرْيَتِكُمُ ۗ إِنَّهُم أُنَاسُ يَنَطَهَّرُونَ ﴿(١) : إخراج مهانة، ولكن الله تكفل لهم إخراج كرامة: ﴿فَأَبَعَيْنَهُ وَأَهْلَهُ وَ إِلَّا ٱمۡرَأْتَهُ قَدَّرْنَهَا مِنَ ٱلْغَيْرِينَ ﴾(٢) ﴿...كَانَتْ مِنَ ٱلْغَيْرِينَ ﴾(٢) أجل وأمْرَأْتُهُ قَدَّرْنَهَا مِن ٱلْغَيْرِينَ ﴾(٢) ﴿...كَانَتْ مِنَ ٱلْغَيْرِينَ ﴾(٢) أجل وأمْرَأْتُهُ قَدَّرْنَهَا مِن ٱلْغَيْرِينَ ﴾(٢) أمله - آله فحسب، كانوا من المؤمنين الذين وجدهم الله:

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

هم آل لوط أنفسهم وكان الخروج ليلاً ﴿. . . فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مِّنَ الشَّرِ فِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مِّنَ الشَّبْخُ اللَّهُ مُويدَهُمُ الصَّبُحُ إِلَّا اَمْرَأَنَكُ إِلَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمُ إِنَّا مَوْعِدَهُمُ الصُّبْخُ الصَّبْخُ الصَّبْخُ الصَّبْخُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٤) ﴿ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَتَرَكُّنَا فِيهَا ءَايَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ

والآية هي تدميرها التي تضم آيات، والخائفون العذاب الأليم هم المعرف المعذاب الأليم هم الموالم والآية هي تدميرها التي تضم آيات، والخائفون العذاب الأليم هم المومنون: ﴿ فَأَخَذَتُهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ شَيْ فَجَعَلْنَا عَلِيهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرُنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ شَي إِنَّ فِي ذَلِكَ كَايَتِ لِلْمُتَوسِّمِينَ شَي وَإِنَّهَا لَبسَبِيلِ مُقِيمٍ شَي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ شَي ﴿ أَنَ فِي ذَلِكَ لَايَتِ لِلْمُتَوسِّمِينَ شَي وَإِنَّهَا لَبسَبِيلِ مُقِيمٍ شَي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ شَي ﴿ (1) .

فالمتوسمون وهم المتأثرون يستفيقون من آيات سدوم، فالمؤمن يزداد إيماناً، ومن غير المؤمنين من هم يؤمنون، ومنهم من يتأملون.

⁽١) سورة النمل، الآية: ٥٦.

⁽۲) سورة النمل، الآية: ٥٧.

 ⁽٣) سورة الأعراف، الآية: ٨٣.

 ⁽٤) سورة هود، الآية: ٨١.

⁽٥) سورة الحجر، الآية: ٦٥.

⁽٦) سورة الحجر، الآيات: ٧٣-٧٧.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلُنَهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينِ ۞ :

كما تركنا في قرية لوط آية للمؤمنين، كذلك تركنا في موسى وعاد

وثمود آيات لهم علّهم يتذكرون، وسلطانه المبين هو مجموعة السلطنة الروحية ببرهانه القاطع القويم، وآياته الخارقة الحسية بعصاه التي تبدلت الثعبان العظيم، وسواهما من آيات، ترى ما كان دور فرعون الطاغية أمام هذا السلطان المبين، الذي أبان الحق بكافة جلواته؟.

﴿ فَتُولُّ بِرُكْنِهِ } وَقَالَ سَحِرُّ أَوْ بَحَنُونٌ ﴿ اللَّهِ ﴾:

تولى عن الحجة والسلطان المبين، والرسول الأمين، ترى بأي سناد؟ بسناد ركنه، وهو جانب الشيء الذي يسكن إليه ويعتمد عليه، من عقله الغارب وعقلاء حزبه! ولم تكن حجتهم إلا فريتهم أنه ﴿سَيْحِرُ أَوَ بَحَنُونٌ ﴾ اعتذار كل عاجز مرتكس العقل، منتكس القلب، لا حجة لهم إلا الخناء والفرية، وإلا الضرب بالقوة إذ لا يفهمون لغة الإنسان.

إنه تولى بركنه بنفسه وحزبه الذي يركن إليهم، لا إعراضاً عن حجة الحق فحسب، بل وملاحقة لأصحاب الحجة أيضاً قتلاً وتدميراً أو تسفيراً، حتى جاء أمر الله وخسر هنالك المبطلون: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُتَبَعُونَ فَيُ وَاتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهُوًا إِنَّهُمْ جُندُ مُغْرَقُونَ فَيْ) ﴿(١):

﴿ فَأَخَذْنَهُ وَجُوْدَهُ فَنَبَذْنَهُمْ فِي ٱلَّذِيمَ وَهُو مُلِيمٌ ١٠٠٠

نفسه: إذ ألام نفسه حين أدركه الغرق: ﴿وَجَوَزُنَا بِبَنِي إِسُرَهِيلَ ٱلْبَحْرَ وَجُوزُنَا بِبَنِي إِسُرَهِيلَ ٱلْبَحْرَ فَالَّهُ وَعُونُ وَجُنُودُهُ بَغُيًا وَعَدُوًّا حَتَى إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهُ إِلَّا ٱلْبَكَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغُيًا وَعَدُوًا حَتَى إِذَا أَدُركَ الْمَعْنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) فهذه إلامة نفسه، ثم يلومه ربه ﴿ آلَكُنَ وَقَدُ عَصَيْتَ قَبُلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣) فالمليم هو الآتي بما يلام عليه، فمن قبل لامه ربه بما طغى، وهنا هو يلوم نفسه إذ يتوب، ثم يلام عليه، فمن قبل لامه ربه بما طغى، وهنا هو يلوم نفسه إذ يتوب، ثم

⁽١) سورة الدخان، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

⁽۲) سورة يونس، الآية: ۹۰.

⁽٣) سورة يونس، الآية: ٩١.

يلومه ربه أنها لا تنفعه عند رؤية البأس، وهذا مثلث اللوم ابتلي به فرعون المليم! ثم نرى الآية الباقية هنا للذين يخافون العذاب الأليم، إنها جسد فرعون الباقي حتى الآن: ﴿فَٱلْيُوْمَ نُنَجِيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَئِنَا لَغَفِلُونَ ﴾ (١) (٢) وإنها كذلك آية للطاغين، وإن كان لا يتذكر بها من غرب عقله وعزب ضميره.

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسُلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۞ :

وآية ثالثة في عاد إذ... (ريح عذاب لا تلقح شيئاً من الأرحام ولا شيئاً من النبات وما خرجت إلا على قوم عاد) (٣): عقيم لا تحمل الأمطار، ولا تلقح الأشجار، ولا تعود بخير، ولا تنكشف عن عواقب نفع، فهي كالمرأة التي لا يرجى ولدها، ولا ينمى عددها: ﴿سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالِ وَثَمَنِينَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلِ خَلُوماً فَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَلُوماً.

ريح عقيم تعقم عن الحياة، وترجع بذوي الحياة وكذا الأموات إلى الرميم:

﴿ مَا نَذَرُ مِن شَيْءٍ أَنَتُ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتُهُ كَالرَّمِيمِ ۞:

وَي كأنها ربح الجحيم! لا تحمل ماء ولا حياة، وإنما مماتاً، ترمّ ما تأتي عليه وتحوله فِتات (جند من جنود الله) (ه) تمشي وتمضي كما أراد الله،

⁽١) سورة يونس، الآية: ٩٢.

⁽٢) ولقد رأيته أنا في متحف الآثار المصرية بقسم المومياء وقرأت هذه الآية بمجمع كبير من السوّاح واحتاروا من هذا التصادق العجيب بمن فيهم من مختلف الطوائف والأديان.

⁽٣) نور الثقلين ٥: ٤٠١ عن روضة الكافي عن الإمام الباقر ﷺ راجع ج ٢٩ الفرقان، وج ٣٠ تجد تفاصيل عن عاد.

⁽٤) سورة الحاقة، الآية: ٧.

⁽٥) نور الثقلين ٥: ١٢٨ عن الإمام الباقر ﷺ: إن لله ﷺ عنوداً من الريح يعذب بها من عصاه...

وفيه عن علي ﷺ: الرياح خمس منها الريح العقيم فتعوذوا بالله من شرها.

إلى تنفيد نقمة الموت أو رحمة الحياة، وكما أن ريح الرحمة من الآيات كذلك ريح العذاب التي اعتبرت في عاد من الآيات: ﴿وَفِي عَادٍ...﴾ آية للمتوسمين، مؤمنين أم فاسقين.

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّعُواْ حَتَّى حِينِ ﴿ اللَّهُ * :

وآية رابعة في ثمود إذ: قال لهم صالح بعدما عقروا الناقة: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامِ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكُذُوبٍ ﴾ (١) ومن مُتعهم الممنوحة فيها، محاولة التوبة في هذه الفرصة، وهي من الهداية الإلهية: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا أَلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْمُدَىٰ ﴾ (٢):

﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّلِعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ١٠٠٠ ﴿

إذ أمرهم ربهم بعد طغواهم بالتقوى في هذه المهلة، توبة إلى الله ليتوب عليهم، لكنهم عتوا بعدما طغوا: نشزوا ونبوا، رغم أنهم ندموا بعد عقرهم في فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَدِمِينَ ﴾ (٣) ولكنهم لم يتوبوا ويستغفروا رغم ما أمروا وأمهلوا! ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَدِمِينَ ﴾ (٤) ولكنهم لم يتوبوا ويستغفروا رغم ما أمروا وأمهلوا! ﴿فَوْلَا سَتَغْفِرُونَ ٱللّهَ لَعَلَّكُمُ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤) ﴿فَأَهْلِكُوا بِالطّاغِيةِ ﴾ (٥) ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إلى الصاعقة الطاغية كيف تأخذهم بطغواهم، فيا لهم من طغواهم!

﴿ فَمَا السَّتَطَاعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ (عَلَي) :

من قيام: لا عن مواضعهم من وطأة الواقعة، ولا عن قريتهم فراراً عن الصاعقة، ولا قياماً في مكافحة الصاعقة، ولا فيما يردها على أعقابها

⁽١) سورة هود، الآية: ٦٥.

⁽٢) سورة فصلت، الآية: ١٧.

⁽٣) سورة الشعراء، الآية: ١٥٧.

⁽٤) سورة النمل، الآية: ٤٦.

⁽٥) سورة الحاقة، الآية: ٥.

بتوبة؛ إذ مضى وقتها، ﴿وَمَا كَانُوا﴾ في حالتهم الطاغية ﴿مُنكَصِينَ ﴾ من الريح والصاعقة الطاغية ولا على طغواهم بالتوبة و﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتُ أَيَّدِيكُمُ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَم لِلْعِبَيدِ ﴾ (١).

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَسِقِينَ ﴿ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

وأهلكنا قوم نوح، اذكر قوم نوح، من قبل هؤلاء الأقوام. أهلكناهم لأنهم كانوا قوماً فاسقين: خارجين عن طاعة الله، فإهلاكهم كذلك آية وكما بقيت على شيء من أنقاض السفينة حتى الآن: ﴿فَأَنِيَنَنَهُ وَأَصْحَبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَهَا عَلَيْ اللَّهَ لِلْعَلَمِينَ ﴾ (٢) (٣).

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَهَا بِأَيْبُدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿ إِنَّا لَهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّا اللَّهُ اللَّهُ اللَّا اللَّلَّا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الل

السماء منصوباً بالمفعولية معطوف على الآيات المسبقة، الآفاقية والأنفسية «وفي الأرض. . وفي أنفسكم» ففي بنائها وتوسيعها آيتان من آي القدرة والرحمة الإلهية، تتأيدان بتقدم العلم، ولا سيما الثانية: إن المملكة السماوية في توسع دائم، فاسم الفاعل موسعون ولا سيما بتأكيدية: (نا) (ل) يوحي بدوام التوسيع: (نظرية التوسعة)!.

ترى أن اتساع مملكة السماء يعم طباقها السبع أيضاً، كما يعم أجواءها وكراتها، ولتصبح ثماني أو أكثر؟ وقد لا تنافيه الآيات المستعرضة لخلقها سبعاً لأنها في عرض بدايتها! إلا أن الحاكية عن كونها سبعاً عند نزول القرآن: ﴿ لَهُ إِنَّ لَهُ السَّمَوْتُ السَّبَعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِهِنَ . . ﴾ (٤) متجاوبة مع المصرحة بمنتهى المعراج وهو الأفق الأعلى ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلمُنتَهَى

⁽١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.

⁽۲) سورة العنكبوت، الآية: ١٥.

⁽٣) راجع ج ٢٩: تجد فيها بشارة محمدية باللغة الأرامية على لوحة من سفينة نوح.

⁽٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(أ) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ (ا) قد تنافي ازديادها على السبع كنقصانها، اللهم إلا في توسيع جنة المأوى، المحيطة بالسابعة، الواقعة على صرحها، وهي من ضمن السماء.

ثم ترى أن اتساعها هو منذ سبعها؟ أم منذ خلقها؟ إن إفراد السماء هنا يوحي بأنه منذ خلق الدخان (الغاز) السماوي، الثائر من تفجر المادة الأم (الماء) فمن توسيعها جعلها سبعاً، ثم خلق أنجمها: ﴿ثُمَّ اَسَّوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِى دُخَانُ فَقَالَ لَما وَلِلأَرْضِ اُئِينا طَوَعًا أَوْ كَرُهًا قَالْتاً أَنْينا طَآبِعِينَ شَ فَقَضَلْهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرها وَزَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَلِيحَ وَحِفْظا ذَلِكَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرها وَزَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَلِيحَ وَحِفْظا ذَلِكَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرها وَزَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَلِيحَ وَحِفْظا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ شَهُ (٢).

ثم السبع بجنتها المأوى، وبأجوائها وأنجمها مستمرة في التوسع إلى قيامتها، والعلم حتى اليوم لم يكشف النقاب إلا عن شيء من توسعها في أنجمها وأجوائها.

إن آخر ما أنتجته التحقيقات الفلكية أن (قطر كل سلسلة سحابية من الجزائر السماوية أربعون ألف سنة ضوئية، والقسم المركزي منها كتلة نارية إلكترونية ذرية، تدور عليها السلسلة السحابية، ونتيجة للدوران تنفتح وتنتشر القطر السحابي الحلزوني لحد ما، وتصبح كقطع سحابية مضيئة، أو مجموعة كواكب، وبعد آلاف الملايين من السنين ينمحي المحل الأصل للسلاسل الحلزونية، وبدلاً عن القطع المضيئة التي هي مراكز الكواكب وأصولها، تظهر في صحنة الفضاء كواكب منفردة، وهكذا يكون دوران المجموعات السحابية مولدة للكواكب وسائر النقط النورانية في الفضاء).

كما وأن بعض الكواكب تقوم قيامتها قبل القيامة الكبرى، إلا أن

⁽١) سورة النجم، الآيتان: ١٤، ١٥.

⁽۲) سورة فصلت، الآيتان: ۱۱، ۱۲.

المواليد منها أكثر من الأموات، وإلا لم يكن لتوسع المملكة السماوية من معنى!.

ثم الأيدي الإلهية المبنية بها السماء، والموسعة بها، هي أيدي العلم والقدرة والرحمة والحكمة، كما أن (نا) هنا وهناك، توحي بأن الله جمع في هذه السماء، كما في الأرض وأنفسكم، جمع كافة أياديه ورحماته، الممكن جمعها في الخلق، فما هو بالخلق وعلى الخلق بضنين!.

﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَهَا فَنِعْمَ ٱلْمَنْهِدُونَ ﴿ إِنَّ اللَّهِ ﴾:

توحي بأن الأرض لم تكن مفروشة ممهدة لأهليها منذ خلقت ولفترة لا نعلم عنها شيئاً، ثم شاءت إرادة الرحمة الإلهية أن تفرشها وتمهدها للأهلين، ولا سيما لنا كما جعلت كذلك ذلولاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمشُوا فِي مَنَاكِمِهَا وَكُلُوا مِن رِّرْقِهِم وَإِلَيهِ ٱلنَّهُورُ ﴾(١) (٢) أعدها الله مهداً ذلولاً، وهما يوحيان باليسر والراحة ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَهدُونَ ﴾ بما خلقنا مهداً ناعماً ومحضناً رفيقاً.

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَفْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَكُمْ لَذَكَّرُونَ ﴿ فَا فَوْرُوا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ لَذَكَّرُونَ ﴿ فَا فَوْرُوا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ لَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿ فَا اللَّهِ اللَّهُ اللَّالَّاللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللللَّاللَّاللَّاللَّهُ اللّ

آية عديمة النظير في كيفية البرهنة على وجود الله وتوحيده، تحمل أعمق الأدلة الواقعية والعقلية الدالة على الله: «ظاهرة التركب في كل شيء»! ما يدل دلالة قاطعة لا محيد عنها على الحاجة الذاتية في كل شيء، في أعماق ذاته، إلى ما وراءه، الذي يباينه في كيانه ﴿فَفُرُّوا إِلَى اللَّهِ ۗ إِنِّ لَكُم مِّنَهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾؟

هذه الآية تتطلب في إيضاح ما تعنيه دراسة واسعة عميقة فصلناها في $\binom{(7)}{(7)}$ ونستعرض هنا ما يناسب موسوعتنا ، صادرين عن آيات الله البينات .

⁽١) سورة الملك، الآية: ١٥.

⁽٢) راجع الفرقان - ج ٢٩ حول آية الذلول.

⁽٣) راجع كتابنا: (حوار بين الإلهيين والماديين).

إنها تحكم على كلّ شيء بكونه زوجين، بغية التذكر: أن الكل فقراء إلى الله، فالفرار عن الكون الفقير اللاشيء، إلى المكوّن الغني الذي خلق كلّ شيء.

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾: ما كنا نعرفه، وما عرفناه بالجهود العلمية، وما نحن في سبيل معرفته، وما لن نعرفه لاختصاص معرفته بمكونه: ﴿ سُبُحَنَ اللَّهِ يَعَلَمُونَ ﴾ (١) لَلَّذِى خَلَقَ اللَّأَزُوبَ عَلَمُ مِمَّا تُنْبِتُ اللَّهُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعَلَمُونَ ﴾ (١) ما لا يعلمونه حالاً، أو ولا استقبالاً، لاستحالة أن يعلمه إلّا الله كالمادة الأمّ: المادة الأولية الفردة التي خلقت لا من شيء، ومنها يخلق كلّ شيء، فلا يعلمها إلا الخلاق العليم، مهما علم الخلق عن مواليدها شيئاً.

فالشيء - أياً كان - كيانه أنه زوجان، في أقل تقدير، شريكان في كونه وكيانه، لو لاهما أو أحدهما، لم يكن هو شيئاً قط، أو ليس هو ذلك الشيء.

إن الشيء المادة كسائر المواد، أو المادي كسائر الأرواح، إنه ككلّ ودون استثناء، محكوم بازدواجية الكون والكيان، كيفما كان وأياً كان، فلا تجد، ومحال أن تجد: خلقاً هو فرد كائن واقع دون قرين، وإن كان في المادة الأم نفسها، كما وأن الزوجية والتركّب والأبعاد لزام الكيان المادي ما دامت كائنة، فإذا زالت عن الوجود زالت الزوجية كما تزول المادة نفسها، وكما أنها توجد لأوّل وهلة مركبة الكيان.

إن ازدواجية كيان المادة قد تتبنّى كونها كأصل، ولأوّل ظاهرة من مظاهرها كالمادة الأم، وقد تتبناها كحالات غير أوّلية، كالحالة الشخصية: موجبة أو سالبة، كأجزاء للذرات، ثم الذرية، ثم الجزئية، ثم العنصرية، ثم العناصرية، ولا بسيط مستحيل التجزؤ فيزيائياً هنا وهناك، اللهم إلّا المادة الأمّ بزوجيها، فإن تجزئتها هي إعدامها، كما أن إيجادها هو خلقها زوجين

(١) سورة يس، الآية: ٣٦.

توأمين، ثم وليس لكل من زوجية زوجان، كما لا يمكن كون كلّ منهما بكيان مستقل عن زميله.

لقد كانت البشرية تزعم أن العناصر الأربعة بسائط، إلى أن كشفت النقاب عما دونها من جزئيات، ثم عن ذرات أنهتها حتى الآن إلى زهاء ١٠٦ ذرة، زاعمة أنها بسيطة: أجزاء لا تتجزى، وأقل تراكيبها هما الشحنتان: الموجبة البروتونية، والسالبة الإلكترونية، ثم ظهرت على أجزاء أخرى لها كالنيوترون والبوزيترون، واستطاعت أن تفتح القلاع الذرية بمدفعيات جبارة علمية، فتجزئها إلى شيء من أجزائها، وتبديل عناصر إلى أخرى بقذف القلاع الذرية في نواتها، وقد سماها العلماء بالكيمياء النواتي.

فالبشرية على ضوء العلم والجهود الجبارة استطاعت حتى الآن أن تعرف تراكيب وأزواجاً فيما لم يكن بحسبان: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن هل للإنسان أياً كان، وكيفما تقدم في العلوم، أن يعرف حقيقة المادة الأم فضلاً عن زوجيها؟ من المؤكد أنها ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ نهائياً، فإن المادة الأم هي ملكوت المادة، مما يختص علمه بالخلاق العليم.

إن الذي يستحق اسم الشيء، المحكوم عليه بأزواجية الكيان، ليس إلّا المادة الأم، وبأحرى مواليدها الذرات بأجزائها، والجزئيات، وسائر العناصر، وأما الزوجان للمادة الأم، فهما معاً شيء وأم الأشياء، وأما كل واحد منهما مستقلاً عن الآخر في واقعه فليس شيئاً حتى يحمل زوجين أم سواه، اللهم إلّا في تصور مبهم في أعلى صروح العقل، أما في الواقع الخارجي فليس بالإمكان كونه ولا كيانه إلا مع زميله التوأم، كما يخلقان معاً هوية وزمناً، ويعدمان كذلك مع بعض.

وإذا سئلنا: ما هي حقيقة كلّ منفصلاً عن الآخر؟ فالجواب: أن لا حقيقة إلا الخيال!.. وإذا كان عدماً، فكيف بالإمكان أن يتحصل من توأمين عادمين كائن مادي يحمل زوجين كائنين؟ فالجواب: أنهما معاً خلقا لا من شيء، لا من شيء كان قبلهما، لا من اللاشيء، وإنما: لا من شيء، فكل منهما إذاً قبل الانضمام، إنه قبل الوجود، كسائر الأعدام الممكنة الوجود، وهما حال الانضمام موجود واحد، وكل منهما مستقلاً عن الآخر مستحيل الوجود، ومع حال الآخر مندغم الكيان معه كالعكس، فالمجموع - إذاً - مادة فردة هي أم المواد، وكل منهما مادي، لا مادة ولا لا مادة، ليس مادة لعدم تركبه والمادة مركبة أياً كانت، ولا لا مادة تعني العدم المطلق لأنه موجود ضمن المادة الأم، أم بصيغة أخرى، هما موجودان معاً بعد خلقهما كمادة واحدة أمّ، وهما معدومان معاً قبل خلقهما، ثم لا برزخ بين حالتي الوجود والعدم، إلا فرض انفصال كل عن توأمه، فرضاً غير واقع مع الحفاظ على كيان الأم، وفيما يكون واقعاً فليس إلا بإعدامهما بإعدام الأم.

ومن ناحية أخرى إن القول باللانهاية في أجزاء المادة ممكنة التجزؤ أم مستحيلته، إنه قول بجمع الأجزاء المادية اللامحدودة في المواد المحدودة، جمعاً بين المتناقضين، وهو يحيل الكيان المادي على أية حال.

وفيما إذا سئلنا: هلا يمكن تجزئة المادة الأم، وإن كانت بالقدرة الإلهية؟ فالجواب: إن التجزئة هنا بمعنى انفصال الزوجين وبقائهما أو أحدهما منفصلاً عن الآخر، إنها مستحيلة وليس للمحال جواب! وهي بمعنى انفصالهما عن الوجود، وانعدام المادة الأم جذرياً، إنها بهذا المعنى ممكن، إذ القادر على الإيجاد قادر على الإعدام، لو صح التعبير عن إعدام المادة الأم بتجزئتها! ولكنه إعدام لها كما أوجدت، أوجدت زوجين مع بعض، وليس لأحدهما كيان مستقل عن توأمه واقعاً على أية حال.

وفيما إذا سئلنا: ترى كيف بالإمكان أن تكون المادة الأم ذات زوجين فقط، والكيان المادي لزامه - أياً كان - أبعاد ثلاثة، وكيف يحمل زوجان بسيطان أقل من ثلاثة أبعاد؟

فالجواب: إن الثلاثة لزام مواليد الأم، الزائدة في تراكيبها عنها، وأما هي فيكفيها بُعدان، وهما أقل تقدير للكيان المادي، بُعدان فيزيائيان، أم هندسيان! وقد يعنيهما الإمام علي على في قوله: (... دالة بتفريقها على مفرقها وبتأليفها على مؤلفها وذلك قوله عرض الله ولا بعد على مفرقها وبتأليفها على مؤلفها وذلك قوله عرض الله ولا بعد..)(١). لَعَلَّمُ لَذَكَرُونَ فَفرق بينها وبين قبل وبعد ليُعلم أن لا قبل له ولا بعد..)(١). والإمام الرضا علي في قوله: «فرق الله بالأشياء بين قبل وبعد ليُعلم أن لا قبل له ولا بعد»، إذ يفسران الزوجين بقبل وبعد: بعدان هما لزام المادة في كيانها الذاتي الأولي، سواء أكانا زمنيين، فلكل كائن قبل – إذ لم يكن – وبعد فسوف لا يكون، والله تعالى قبل القبل أزلياً وبعد البعد أبدياً، أو كانا ماهويين داخل الذات وهما البُعدان فيزيائياً، أم هندسياً، بُعدان مكانيان قبل وبعد، والله تعالى خارج عن المكان وعن الأبعاد أياً كان.

وأخيراً ما هي الصلة بين الزوجين هذين وبين تذكر الألوهية وراءهما والفرار إلى الله منهما؟.

أقول: إنه تذكر للغافلين عن الحيطة الربوبية بالأشياء، إن الفقر والحاجة مندغمان في أصول كيان المادة، ولنأخذ المادة الأم - وهي أغنى المواد وأولاها - مثالاً لهذه الذكرى.

هذان الزوجان كما عرفناهما، كل منهما ليس في ذاته إلا (لا) لا يملك كوناً ولا كيانا فضلاً عن تكوين زميله، وكل منهما متوقف في كونه على

⁽۱) التوحيد للصدوق بإسناده عن الإمام الصادق على قال: بينا أمير المؤمنين يخطب على منبر الكوفة إذ قام رجل... فقال: يا أمير المؤمنين! هل رأيت ربك؟ فقال... وهي خطبة توحيدية عظيمة.. (راجع كتابنا «حوار» في شرح الخطبة).